

قصة تاريخية

نورجهان..
أمبراطورة الهند

بقلم الدكتور:
محمد رجب البيومي

توافد الحجاج على بئر زمزم، يحاول كل حاج أن ينهل جرعة تروي ظمأه، وتشفي جسمه، ولكن رجلاً أسمر الوجه، واسع العينين، أسود اللحية، كان يحمل معه ثوباً من القماش الحريري الأبيض، وهو لايني يأخذ من ماء زمزم، وينضح عليه، فعجب الناس من أمره، ومضت مدة طويلة والرجل ينتهز فرصة انقضاء الزحام، ليواصل رش الثوب الحريري الأبيض بالماء، حتى غسله غسلاً، جعل الماء يتساقط منه في كل ناحية، والثوب جديد قشيب لا يستدعي التنظيف، ولو كان في حاجة إلى الماء لكان في غير زمزم ما يغني، فهي للشرب لا للغسل، فتقدم إليه حاج يستخبره عن صنيعه، فقال له:

ما اسمك ومن أي البلاد؟ **فأجاب الرجل** أنا منصور الهندي.

- إذن أنت من الهند

- نعم.. **فقال الحاج:** وماذا تصنع بهذا الثوب، **فتفرس فيه منصور متطلعا، وقال له:** إذا أردت أن تعرف ما أصنع، فدعني أسألك أتعرف الأمبراطورة نورجهان؟

فقال الحاج: أمبراطورة الهند السابقة، أي الناس لا يعرفها، وقد سار ذكرها في كل مكان!

قال منصور: هذا الثوب الحريري ثوبها، وقد اعتزمت أن تغسله من ماء زمزم ليكون كفنها يوم تموت! وأرسلتني لأغسل الثوب أولاً، ثم أحج ثانياً، ولولا أنها تكفلت بنفقات الحج ما استطعت زيارة البيت الحرام!

قال الحاج: وماذا يصنع ماء زمزم إذا غسل به الكفن، لن ينفع الميت غير عمله. **فعجل منصور يقول:**

هي تعرف ذلك، فقد جالست العلماء، وحفظت القرآن، وروت الحديث الشريف، ونظمت الشعر، وناقشت الفقهاء في أدق مسائل التشريع، ولكن عاطفتها أوحت لها بهذا الصنيع؟

وقاطعه الحاج قائلاً:

تقول إنها نظمت الشعر؟ إن فكرتها هذه التي بعثت بك لتغسل الثوب بماء زمزم فكرة شاعرة ذات إحساس! وليست فكرة عالمة فقيهة تحفظ القرآن وتروي الحديث، وما فعلته بدعة مردودة سوسها لها شيطان الشعر، الذي يبدو أنه يسيرها في شئون حياتها

وهنا قال منصور:

لقد ذكرت أن حديثها قد سار في كل مكان، وإذن فالناس يعرفون أنها كانت أمبراطورة تملك الأمر والنهي، وتدير شئون البلاد، وتناقش الولاة والوزراء، وتضع قوانين الدولة، وفق الظروف والملابسات، ومثل هذه السيدة الحازمة المتيقظة لن تكون.. مجرد شاعرة تخضع لأهوائها.

قال الحاج: شوقتني لحديثها، فهل أدعوك لتناول الغداء في خيمتي لأسمع من أخبارها ما يمتع ويروق! هيّا هيّا

وانطلق الرجلان إلى مكان الخيمة القريب، ولم يمهل منصور صاحبه، إذ بدأ يقول في اهتمام:

إن الأمبراطورة لم تخترني دون تجربة، فقد خدمت في قصرها عشر سنوات، وعرفت لدي أمانة القول والفعل، وكان آخر حديث لها معي أن قالت: لن أأتمن سواك على غسل الثوب من ماء زمزم، فقد عرفت أمانتك، وأخشى أن أبعث غيرك، فيغسل الثوب بماء آخر،

فقال الحاج: وإذا كنت قد خدمت في القصر عشر سنوات، فأنت تعرف من تاريخ نورجهان، ووقائعها المعلومة والمجهولة ما لا يعرف الناس، وسنتناول الطعام الآن مع من يرافقني في الرحلة إذ جئنا من سمرقند، لنسعد بزيارة بيت الله، **ثم مالبث أن دخل الخيمة حاجان يلبسان ملابس الإحرام، فصاح صاحب الخيمة:** ها هما ذان رفيقاي، **والتفت إلى منصور وقال:** وهذا ضيفي من الهند، فأعدا الطعام لنأكل ثم نسعد بحديثه، وإنه لطريف!

وفي لحظات قدمت المائدة حافلة بالطعام، ورأى منصور من حفاوة القوم به ما آنس نفسه، وأمتع وجدانه، إذ حرص كل من الثلاثة أن يختار له أحسن ما أمامه، حتى تراكم الطعام دونه، فصاح بهم: رفقا رفقا، فأنا واحد وما أمامي من الطعام كاف لعشرة من المنهومين! **فقال الحاج:** كلٍ يا أخي كي لا تتعب من حديث نورجهان! إذ تسري العافية في جسمك فينطلق اللسان! **قال منصور:** نحن ضيوف الله في هذا المكان، وقد أنست بكم أنسا كاد ينسيني أهلي، وليست المائدة هي التي سببت فرحتي بكم، ولكن سماحة الوجوه وبشاشة الثغور، وصدق المروءة، وكريم النخوة مما جعلني أتأكد أن الزمن لايزال عامرا بالكرام!

قال الحاج: نريد أن تتحدث عن نورجهان لا أن تتحدث عنا!

فبادر منصور يقول: وهل أجيد غير الحديث عن مليكتي نورجهان! **ثم التفت إلى الرفيقين القادمين سائلاً:** هل تعلمان عنها ما يعلم أخوكما؟ **فقال الحاج:** دعك منهما رتحدث! **فقال منصور:**

لا أدري بماذا أبدأ، فقد حفلت سيرتها بغرائب الأحداث، وأول ما أعرف من أمرها، أن والدها كان من وزراء فارس الكبار، ثم غضب عليه مولاه، فهاجر إلى الهند معدما لا يحمل معه غير ملابسه، مع أسرة تتكون من زوجة وولدين، وفي الطريق ولدت له طفلة رائعة الطلعة وبعض الناس يقولون إنه تركها في الطريق، ليأخذها من يستطيع أن يقوم بتربيتها، لأنه معدم لا يملك قوت يومه، ثم جاء من حملها، وتقدم سائراً إلى خيمة كبيرة يجلس بها بعض المسافرين، فصاح بهم، هل فيكم من ترضع هذه الطفلة بأجر معلوم، فهاجت عاطفة الأمومة، في نفس والدتها، فصاحت هي ابنتي، فقال الرجل وكان تاجراً كبيراً.. ولم

تركتها في الصحراء هكذا؟ فبكت الأم، وتدخل الوالد فقال في رنة أسف، إنه خرج من بلده مهاجراً لا يملك درهما واحداً، ومعه امرأته وابناه فولدت هذه في الطريق، فقلنا لعل الله يبعث إليها من يستطيع الإنفاق عليها من القادرين!

فتعجب السمرقنديون الثلاثة، وكان أحدهم، ذا مظهر يدل على ثقافة واطلاع، واسمه يونس، أما الآخران فهما عثمان ومحمود.

قال يونس: يخيل إليّ أن هذه الرواية مكذوبة، حاكها خصوم الأمبراطورة تحقيراً لشأنها، إذ لا يعقل أن رجلا كان يتولى الوزارة يخرج من فارس إلى الهند مع أسرته دون أن يكون معه درهم واحد، ثم لا يعقل أن يقدم أبوان على ترك وليدتهما في العراء، انتظاراً لمن يتقدم لرعايتها! إن الحيوان المفترس يقاتل دون ما يلد، فهل يحدث هذا الشذوذ الأحمق من ذي مستوى رفيع.

تطلع منصور إلى يونس وقال: كلامك معقول ياسيدي، ولكني سمعت ما رويت، كما سمعت من يقول إن الوزير قدم إلى الهند بتوصية من أحد الكبراء في فارس، قدمها للأمبراطور «أكبر» فعينه كاتباً في قصره، واختبره عن كثب فرأى لديه من دلائل الحنكة وعلائم الإخلاص ما أعجبه، فارتفع به إلى درجة ضابط بالقصر الأمبراطوري في دلهي، وعين زوجته مدرسة تختص بتعليم إحدى الأميرات في القصر!

قال يونس: تلك هي الرواية المعقولة، فماذا جد بعد ذلك للطفلة الصغيرة؟

قال منصور: لقد سماها أبوها «مهر النساء» وباشر تثقيفها بنفسه فحفظت القرآن، ودرست العربية والفارسية والأوردية، ونبغت في الآداب الفارسية حيث درست دواوين المشهورين من شعراء فارس العظام، وأعجب مافي اتجاهها أنها حذقت أساليب الفروسية، فأتقنت ركوب الخيل وطعن الرماح، وامتشاق السيوف، ورمي النبال، أما جمال صورتها فكان أول أسباب ارتقائها السريع، حيث ملكت كل لبّ! وكان منصب والدها يتيح لوالدتها أن تحضر حفلات القصر مع ابنتها ذات الصبا الفينان، والروعة الخالبة! وكانت نفسها الشاعرة تدفع بها إلى الانفراد في حديقة القصر الأمبراطوري، تاركة من يسمرن من السيدات في المقاصر والردهات، لتتأمل جمال الزهر، ونضرة الشجر وترقرق الماء في الغدران، وتصغي إلى الطيور المغردة، وتستنشق الأريج العاطر، وبيدها كتابها، حتى إذا رأت ما يدل على انتهاء الحفل سارعت إلى والدتها لتصحبها عائدة، كما رافقتها قادمة! وفي أصيل يوم ما، نزل الأمير سليم، أكبر أولاد الأمبراطور إلى الحديقة، يرتادها منفرداً، فرأى «مهر النساء» تقرأ في كتابها، وقد خلع الجمال عليها من الفتنة مالا مثيل له فيمن شاهده فتسمرت قدماه مأخوذا بما يرى، ثم تقدم يسألها عن اسمها ومن جاء بها إلى حديقة القصر، وأطال السؤال، فوجد من دقة الإجابة، وحلاوة التعبير، وأدب الخطاب ما ملك لبه، فرق صوته، **وقال وكأنه يتوسل:**

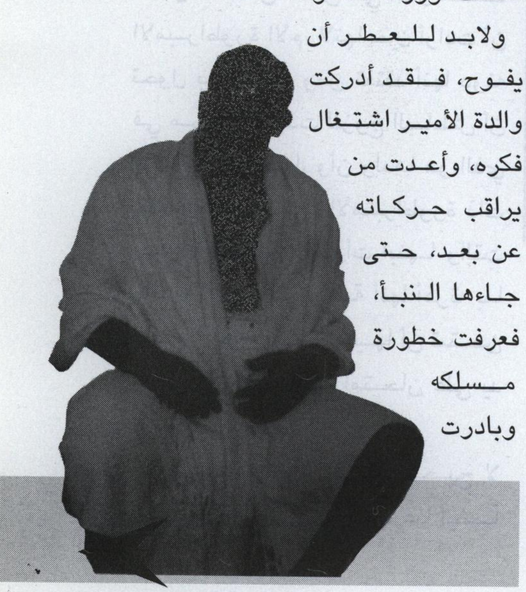
لي رجاء واحد لديك يا أميرتي:

فاستدركت تقول: لست أميرة يا مولاي، ولكنني بعض رعيتك المخلصة،

قال الأمير: لي رجاء واحد، وهو أن تحضري كل احتفال يقام في القصر، ويكون مجلسك تحت هذه الشجرة! وأدرك حرج موقفها فتركها في شوق، وانطلق إلى والدته مهموما يكتم من أمره ما يخاف أن يظهر، فيلحق الفتاة وأباها ما يسوء، لأنه يعرف حزم والده الأمبراطور ولن يسمع له بالزواج إلا من ابنة ملك في الخارج، أو كريمة أحد أعمامه من أمراء البيت الأمبراطوري، فأين من هاتين ابنة غريب وافد من فارس ليعمل ضابطا بالقصر!

ثم لم يستطع مغالبة وجده، فكان ينتظر حفلات القصر في لهف زائد، وقد أدرك حرص الفتاة على لقائه، وعدم تخلفها عن موعده، أنها تضمر له من الحب ما يعلن لها، دون أن تفصح بلفظها مكنون قلبها، لأنها مع سنها الصغيرة عاقلة أريبة، تدرك أنها أمام ولي العهد، وتعرف وضعها من مثله! ولكن جمالها الصارخ كان يأخذ عليه سبيله، وليس جمال الصورة فحسب، ولكن جمال المحادثة، ورقة الحوار، وشفافية النظرة، مع كمال السمت، ورزانة السلوك.

ولابد للعطر أن يفوح، فقد أدركت والدة الأمير اشتغال فكره، وأعدت من يراقب حركاته عن بعد، حتى جاءها النبأ، فعرفت خطورة مسلكه وبادرت



بإعلان الأمر لوالده الأمبراطور «أكبر» مؤكدة أن الفتاة المسكينة لا ذنب لها، فالأمير يلاحقها دون أن تستطيع الخلاص، وأمها وأبوها لا يدريان من أمر الأمير شيئاً، ولو دريا ما استطاعا أن يتفوها أمامه بلفظ! قالت الأم ذلك، لأنها تعرف بطش زوجها وعنفه، فقد يهم بعقاب الأسرة جميعها، أو بما هو أقسى من العقاب، وهو الاستئصال كما يفعل بأعدائه!

ولم يهدأ «أكبر» إذ كان في نيته أن يعقد للأمير على أميرة من بيته، وكان يعجب بضابط فارسي من ضباط القصر لشجاعته النادرة، فمنحه لقب «شير أفكن» أي مصارع الأسد وعينه والياً على محافظة «بردوان» على أن يتزوج «مهر النساء» لفوره، ويرحل بها إلى ولايته البعيدة عن دلهي من الغد، وأسرع فنادى «غياث الدين» والد الفتاة، لينفذ الأمر لساعته، فقد اختار لابنته أقرب ضباط القصر إلى نفسه، وجعله حاكما على محافظة كبيرة! وهل لمثل «مهر النساء» أن تطمع في أكثر من حاكم إقليم!!

وتم الأمر الفوري، وتحطم قلبان!

قال عثمان: الحق أني أقدر مسلك الأمبراطورة الأم، لأنها حين أرادت أن تحول بين الأمير ومن تعتقد أنها دونه في مرتبته، أكدت للزوج الباطش أن الفتاة لا ذنب لها، وأن ولدها هو الذي يتعقبها، ولو كانت الأمبراطورة ذات رعونة حمقاء! لبرأت ابنها وألقت بالتبعة على الفتاة زاعمة أنها أغرته بما تملك من جمال! ولا عليها أن تمتحن الفتاة وأسرتها أشق امتحان على يد متسلط جبار!

فرد يونس يقول: هذا صحيح لا شك فيه، ولكن لا يغيب عنا أيضاً شرف المسلك الذي انتهجه الأمبراطور، فقد كان في وسعه بعد أن عرف أن الفتاة لا ذنب لها أن يأمر بطردها مع أسرتها في أقل من طرفة عين، دون أن يستشعر أدنى خطأ، وحسب الأسرة أن نجت من عقابه، ولكنه اختار للفتاة زوجا كفئا، هو أشجع فرسانه وجعله حاكم ولاية كبيرة، ولم يكن والدا الفتاة يحلمان لها بمثل هذا الزوج، إني أضيف الإعجاب بالأمبراطور إلى الإعجاب بالأمبراطورة فكلاهما في موقفه الحاسم عاقل رزين!

قال محمود لمنصور: ثم ماذا؟! أتمم حديثك فنحن مشوقون!

قال منصور: تعاقبت الأحداث، ومات الأمبراطور أكبر، وخلفه «سليم» متسمياً باسم «جهانجير» فلم يفتر عنه شوقه إلى مهر النساء، وأخذ يعمل الحيلة في الاقتران بها بعد أن زالت عقبة أبيه، وأمثال هذه الحيل الخفية لا تُعلم كما وقعت، لذلك يتكهن الناس حولها، فتختلف الروايات، وتتناقض المسائل، ولا يستطيع أحد أن يجزم بشيء على وجه قاطع.

فرد يونس: اذكر لنا بعض ما قيل، وربما يمكننا أن نرجح، **فقال منصور:** قيل إن جهانجير حاول أن يسترضي الزوج «شير أفكن» فمناه بمنصب كبير إذا بادر بطلاقها، وأرسل إليه حاكم البنغال قطب الدين كي يلين قناته دون ثورة منه يتعالمها الناس، ولكن الزوج فوجيء بما لم يتوقع، وأراد قطب الدين ملاينته، فتطور الحديث إلى منافشة غاضبة صارخة من الزوج، ثم رفع سيفه وهوي به على رأس قطب الدين، وكان معه حراسه وحاشيته فسارعوا بالانتقام العاجل، فهوت رقبة الزوج أيضاً، وخلا المكان.

قال يونس: هذه رواية، فما الرواية الأخرى؟ **فقال منصور:**

لما مات أكبر، لم يخلص العرش لسليم بسهولة، حيث عارضه إخوته، كل يطمع أن يكون أمبراطوراً، ودارت معارك أهلية بين الإخوة المتصارعين، وقد انضم «شير أفكن» إلى غير سليم، وبعث بجنود ولايته لتقف مع خصومه، فلما انجلت المعارك عن انتصار سليم، نكل بخصومه جميعاً، ومنهم «شير أفكن» وبذلك خلا المكان.

فهز يونس رأسه قائلاً:

أرى هذه الرواية أقرب إلى الصواب، إذ لو صحت الرواية الأولى لغضبت مهر النساء كرامة لولديها من شير أفكن، وما قبلت أن يعرف الناس أن زوجها راح ضحيتها هي، لأن الإشاعات ستشركها في المؤامرة وتجعلها غادرة بمن صانها وتمسك بها حبا وإخلاصاً.

وهنا سأل محمود: وهل زفت مهر النساء إلى الأمبراطور سريعاً بعد انقضاء العدّة!

فقال منصور: كلا مكثت أربع سنوات دون اقتران، وجهانجير يراسلها متوسلا ضارعا دون يأس، حتى أجابت بعد إباء.

فرد يونس: في هذا ما يبرئ ذمتها من المشاركة في دم قرينها، إذ لو كان الأمر عن اتفاق ما طالت مدة ترملها هكذا، ثم هي معذورة حين استجابت للأمبراطور بعد أربع سنوات.. إذ لم تكن تستطيع أن تنجو من شره إذا عاندت، وفي مكنة الأمبراطور أن يعلن موافقتها دون أن ترضى، ويعقد القران، ويقيم حفلات الزواج فتصبح أمام الأمر الواقع، ولا تجد بداً من

الاستسلام، لاسيما إذا كان بينهما هوى لم ينقطع، همدت ناره فوق السطح عندها، ولم يزل الجمر تحت الرماد، أما هواه فلم يهمد لا فوق السطح ولاتحت الرمال.

وانتقل الحديث إلى منصور فقال:

لقد بهرت «مهر النساء» الدولة بذكائها المفرط، لأنها حين أصبحت الأمبراطورة لم تركن إلى الانزواء في حجرات القصر، كمن سلفها من الزوجات، ولكنها شاركت مشاركة حقيقية في أعباء الحكم فكانت المستشار الأول لولي الأمر، ودرست شئون الدولة جندا ومالاً وإدارة، وعرفت كل ذوي المناصب العليا، وعقدت معهم الاجتماعات، وضربت النقود باسمها على إحدى الوجهتين، والوجهة الثانية «باسم جهانجير» وما تم ذلك لأمبراطورة في الهند، وقد أراد الأمبراطور أن يمنحها لقب «نور جهان» تقديراً لمنزلتها ومعناه «نور العالم» بأجمعه، وكانت الزوجات السابقات للأباطرة يمنحن لقب «نور محل بيجوم» أي نور القصر، وأين القصر المحدود من الدنيا جميعها، وقد وقع الأمبراطور في محن سياسية دامية. فكانت «نور جهان» صاحبة الموقف الأول في إنقاذه، تعرض مرة للأسر على يد عدوه «محبط خان» إذ قبض عليه وهو في حاشية صغيرة لم تستطع حمايته، وعلمت «نور جهان» فقادت الجيش لإنقاذ الأمبراطور، وأرادت عبور النهر، فوجدت «محبط خان» قد أزال الجسور ليقف النهر الواسع حائلا دون الصدام، حتى تنضم إليه جيوش المعارضين من أعداء «جها نجير» وفوجئت «نور جهان» بالواقع الصعب، فأصرت على أن يركب الجنود الفيلة لتعبر بهم إلى الجانب الثاني، وتقدمتهم جميعاً، فركبت فيلها المدرب، وشقت عباب النهر وجعلت السهام تسلط عليها من جيش «محبط خان» حتى أصيب حشد كبير من جيشها، ونفرت الفيلة، وغرق من غرق، وأصيبت «نور جهان» بسهم في ذراعها، فلم تكترث بالدم المنزوف وصممت على الوصول وتشجع من حولها بإقدامها، فزحفت الفيلة وراءها إلى الشاطئ فلما بلغته كان الإنهاك قد بلغ منها أعظم مبلغ، كما كان الجند في اضطراب، وبلبلة فلم يستطيعوا المقاومة، ورأت أن تستسلم لمحبط خان الذي كان قائد الجيش الأمبراطوري من قبل، فرأى أن يضمها إلى زوجها، ولكن تحت ملاحظته، فأظهرت الاقتناع، ثم دبرت أمراً خطيراً، حين أظهرت شقاقها لزوجها، وجعلت تنتقده علانية، حتى ظن «محبط خان» أنها ستفارقه مطلقة، فأخذ يتودد إليها في لباقة، وهي تزداد في نفورها الظاهري من «جها نجير» فبسط لها من النفوذ، وجعل الضباط والقادة تحت إشارتها، تترأسهم كما كانت في قصر دلهي، وبدهائها استطاعت أن تؤلبهم على القائد المغتصب، فثاروا به في فجاءة لم يتوقعها، ونجا الأمبراطور الأسير وعاد إلى مقر حكمه ظافراً منتصراً بمكيدة «نور جهان»

عادت نور جهان إلى دلهي أكثر ما تكون بأساً، وأعز سلطانا، ففضلت أن تصرف بعض وقتها في المسائل الخيرية ذات المغزى الإنساني، فأنشأت جماعة لرعاية الأيتام، وجماعة ثانية للإشراف على تجهيز الفتيات الفقيرات عند الزواج، وجماعة ثالثة لتعليم بنات جنسها مسائل الاقتصاد، والدربة على الحياكة والتطريز، وما يخص المنزل من مهام وقد ذهبت مع زوجها وجنوده في رحلة صيد بالغابة، راكبة فرسها النشيط، ففوجئ القوم بأربعة آساد يبرزن أمامهم فجأة، فذعروا ذعرا شديدا، ولم يتماسك بعض جنود الحرس فولوا الفرار، ولكن نور جهان أعدت سهامها لتصوبها في براعة إلى عيون الآساد، وسددت السهام في جأش رابط، حتى أصابت مرماها، وصرعت الآساد الأربعة أسداً بعد أسد، فاجتمع حولها الحرس مندهشين بروعة ما أبدت، إذ فاقت بجهدها الخارق أشجع الرجال.

وكان ما لابد أن يكون، فقد مات زوجها جهانجير وورث العرش نجله الأكبر من غير أولادها، فآثرت الاعتزال راضية، وتفرغت للأعمال الخيرية، والقراءة الثقافية، ثم بنت لنفسها مقبرة تقرأ أمامها القرآن كل يوم، وأرسلتني لأغسل الكفن المنتظر بماء زمزم

ودوّى صوت المؤذن فهرع الحجاج إلى بيت الله ملبيّن مهلّين.

